

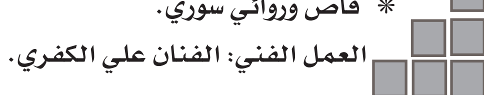
لـم يعـد ضيفـاً

قصّة

سامر أنور الشمالي*

(١)

أكد لي الضيف منذ جلسته الأولى أنه يعرف أبي جيداً، وأن جدتي أرضعته من حليبها وهو صغير في المهد. وقد قصد من هذا الحديث -الذي يزعم صحته- أنني وإياه أقرباء بالرضاعة. لهذا لم أجد من اللائق أن أسأله عن سبب زيارته المفاجئة دون موعد، برغم أنني أجهله تماماً. فعاداتنا العريقة علمتنا إكرام الضيف لمجرد كونه ضيفاً، بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى.



* قاص وروائي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وصـــادف أن وقـــت زيارته كان ظهراً، فدعوته إلى الطعام، فتقاسمنـــا الخبـــز والملح ولأن جلستـــه طالت دعوتـــه لتناول العشـــاء. وبعدما طالت السهرة -استحييـــت أن أقـــول لـــه أن الزيـــارة طالت أكثر مما يجب- فدعوتـــه أيضـــاً للمبيـــت في منزلي، وجهزت له فراشاً وثيراً، وأغطية من النوع الفاخر.



وكنت متأكداً تلك الليلة أنه سيغادرنا صباحاً، فتعود مسيرة منزلي كسابق عهدها.

(٢)

شكـــت زوجتـــي المتذمـــرة، وأولادي المتأففون، من الضيف. فهـــم لم يعـــودوا قادريـــن على التصـــرف بحرية في المنزل. ولم أكن أقل منهم ضيقاً، فلم أعد أستطيع مغادرة المنزل كي لا أترك الضيف القريب مع أفراد أسرتي.

فلجأت إلى طرده بطرق غير مباشرة، كأن أعبس بوجهه، أو أتجاهـــل حديثه، وأيضاً لم أعد ألح في دعوته للطعام. ولكنه لم يعر الأمر الأهمية التي كنت افترضها، فلم يعبأ بذلك؛ بل استمر كعادته في الضحك بصوت عالٍ ولو لم نشاركـــه، أو الاستفاضة في الكلام حتى لو لم نحادثـــه، أو الجلوس إلى مائدة الطعام دون أن ندعوه.

(٣)

انتهـــت إجازتي فلم أجد بـــداً من العودة إلى العمـــل وترك الضيف مـــع أسرتي طوال النهار.

وبمـــرور الزمـــن ألفـــت أسرتـــي وجود الضيف.

حتـــى إن الأطفال صـــاروا يلعبون معه – كأنه أحد الأقارب– وقد يطالبونه بأن يقص عليهم من حكاياته التي لا تنفد، أو يساعدهم في إعداد فروضهم المدرسية.

كما اعتادت زوجتي أن تظهر أمامه بثياب النوم، وتقوم بالأعمال المنزلية على مرأى منه دون حــرج، حتـــى إنها بدأت تطلــب منه أن يساعدها في ترتيب المنزل، أو تقشير البصل. بل كان يقوم ببعض الأعمال المنزلية أو يعتني بالأطفال أثناء غيابها عن المنزل.

وقـــد تنبهـــت أن أولادي أخـــذوا يشكون بعضهـــم إليه ليفصل في خلافاتهم الصغيرة. بـــل عندما حدثت مشكلـــة طارئة بيني وبين زوجتي شكتني إليه، فاستدعاني وسمع وجهة نظـــري، ثم ســـوى الخلاف بمهـــارة حسدته عليها. ودهشت حينـــذاك أن للضيف فوائد لا يمكن إنكارها.

(٤)

تنبهت إلى أن الضيف أخذ يقضي معظم وقتـــه في إحدى حجرات المنـــزل، حيث وزع محتويات حقيبته.

بل إن مصطلـــح (حجرة الضيف) دخلت في قاموســـ أفراد أسرتـــي لا شعورياً. فهذا الاصطلاح الجديد صار يتردد في كلام أسرتي اليومـــي كبدهية لا تقبـــل المناقشة، وهذا لم ألحظه إلا متأخراً.

وأكثر ما أزعجني أنه أخذ يستعمل معجون أسناني، وفرشاة حلاقتي، ثم منامتي فطلبت منـــه بحزم أن لا يستعمل أشيائي مرة أخرى. ورجحت عندئذٍ أنه سيرحل عندما يشعر بأنه ضيف غير مرغوب فيه. ولكنني فوجئت بأنه اشـــترى كل ما يحتاجـــه، ووضعه في غرفته، حتى إنه اشترى سخاناً صغيراً لإعداد الشاي والقهوة في غرفته.

(٥)

لم أعد أطيق هذا الضيف، لاسيما بعدما فرضـــ نفســـه على أسرتـــي باعتبـــاره أحد أفرادها، بل خشيت على زوجتي وأولادي من تأثير رجل لا أعرف عنـــه شيئاً. لهذا لم أجد أمامي من خيار سوى أن أصارحه بأنه ضيف غير مرغوب فيه.

– إلى متى ستظل ضيفاً؟

قلـــت لـــه دون أن أستطـــع التخلص من الخجـــل أمامه، ولكنه لم يتأثر كما توقعت، بل سألني ببساطة:

– ماذا تعني؟!.. لم أفهمك تماماً!؟

– زيارتك طالت أكثر مما يجب.

قلت، فقال وقد بدا الحزن عليه:

- وإلى أين تريــدني أن أرحل؟.. ليس لي سواكم في هذا العالم.

- هذا ليس من شأني.. الضيف لا تستمر زيارته لأجل غير محدود.

بعدمــا قلت هذه الجملــة تغيرت ملامح وجهه، وأردف بثقة:

- أنا لم أعد ضيفا!

- ماذا تعني!؟!

- أنا أصبحت واحداً منكم.. أنتم أهلي.

صرخت بوجهه، وقــد ذهب الخجل مني إلى غير رجعة:

- لكننــي لا اعتبرك مــن أهلي.. لهذا لا أريد رؤيتك بعد اليوم.

- إن لم ترد رؤيتي.. فسألزم غرفتي.

قال وقد اختلجت دمعة في عينيه. فحاولت أن أظل رابط الجأش، فتابعت قولي:

- غرفتــك جزء من منزلي.. وأنا أطردك من منزلي كله.

عندئذٍ صرخ بوجهي:

- ليس هذا المنــزل ملكك وحدك.. هذا منزلنا جميعاً.

وأدار لي ظهره، ودخل غرفته بعدما أغلق البــاب بقوة علامة احتجاجــه على موقفي. خرجت زوجتي وأولادي على صوت الضجيج، وسألوني عما جرى، فقلت لهم ما حدث بيننا بإسهاب.

فقال أصغر أولادي:

- حكاياته حلوة وأنا أحبه.

فصفعت ولدي، فاحتضنته أمه قائلة:

- أنت قاسي القلب.

وصمــت أولادي بحــزن وهــم يحدقون بوجهي الغاضب بحيرة لم يفهموها.

☆ ☆ ☆

استمــرت المقاطعة بينــي وبين الضيف. وقد وقفت أسرتي إلى جانبي بعدما بينت لهم خطره المحدق بنا جميعاً، وإن كنت غير متأكد من مشاعرهم آنذاك.

ولكــن الضيــف لم يحفــل بذلــك، فكان يقضــي كل يومه في غرفتــه، وقد يخرج إلى الحمام لقضاء حاجتــه، أو إلى المطبخ ليأكل من طعامنا.

بعدما فقدت الأمل بسلاح المقاطعة قررت دخول المواجهة مهمــا كانت عنيفة. وفي أول مصادفة جمعتنا وجهاً لوجه -وهو يخرج من المطبــخ وبيده صحن مملــوءة بالطعام الذي طهتــه زوجتــي- اعترضت طريقــه صارخاً بوجهه بكل طاقتي:

- بأي حق تأكل من طعامنا؟

- هل تريدني أن أموت من الجوع؟!
- هذا ليس من شأني.
- أنت مجرم ولن أسمح لك بقتلي.

صرخ بوجهي متحدياً فرددت على تحديه الصريح بأن أمسكت بحذائي وضربته على وجهه. فرماني بسكين كان في صحن الطعام، فجرحني، وكاد يقتلني.

وبرغم ذلك لم أغضب كثيراً، بل فرحت لأنني حققت بعض الانتصار في معركتي معه، إذ تأكد لي أن أسرتي سوف تؤازرني حتماً.

☆ ☆ ☆

بعد مدة قررت اقتسام غرفته ليلاً كي أفاجئه وهو نائم، فأحقق انتصاراً سريعاً. ولكنني وجدت باب الغرفة مغلقاً من الداخل، فباءت محاولتي بالفشل.

عدلت خطتي وكمنت له في الحمام، وعندما دخل فاجأته بلكمة من قبضتي على فمه، ولكنه ردها سريعاً. وبدأت بيننا معركة انتقلت إلى جميع حجرات المنزل. ولم تسفر المعركة عن هزيمته أو انتصاري برغم كل الدمار الذي أحدثناه في المنزل، لأن كلاً منا استعمل ما تقع عليه يداه كسلاح يضرب به خصمه كيفما اتفق.

(٦)

لم يبق أمامي سوى أن أستدعي الجوار، ولكنهم تنصلوا من نصرتي، فلكل منهم سببه الخاص. فاكتشفت عندئذ أنه أقام معهم علاقات طيبة دون علمي.

ودهشت عندما قال أحدهم:

- رفضت صداقته.. لأنني أخشى إذا خرج من منزلك أن يحل ضيفاً عندي!

(٧)

وجدت أن أسلم طريقة هي أن أشكوه إلى الشرطة، كي يأخذ القانون مجراه، فينتصر الحق.

وبعد شكواي، أتى رجال الشرطة للمنزل، وأخذوا إفادة أسرتي، وإفادة الضيف أيضاً، ثم رسموا مخططاً تفصيلياً للمنزل.

☆ ☆ ☆

بعد أيام قلائل استدعته المحكمة، فخمنت أن نصري بات قريباً.

ولكنه وكَّل محامياً مشهوراً يدافع عنه، فلم يبت بالدعوى من الجلسة الأولى كما توقعت.

☆ ☆ ☆

عقب شهور من الجلسات في المحكمة صدر القرار الذي لم أتوقعه في أسوأ احتمالاتي. فلقد نص قرار المحكمة أن نتقاسم المنزل!

(٨)

قررت عدم الاستسلام، فعزمت على التفكير في طريقة ما أطرده فيها من منزلي.

وأول خطوات معركتي -التي تأكد لي أنها ستكون طويلة وشاقة- كانت في أن أكثر من عدد أولادي. لهذا اعتبرت خبر زوجتي بأنها حامل، بشرى السير في طريق الانتصارات.

وفي غمرة انشغالي بالتفكير في حياكة خطة محكمة لطرده استدعتني المحكمة نتيجة دعوى أقامها ضدي.

ذهبت للمحكمة متعجباً من وقاحته، ومتحيراً في طبيعة الشكوى التي أقامها ضدي وأنا صاحب الحق، وهو اللص الذي قام بفعلته الشائنة في وضح النهار دون أن ينال القصاص العادل.

☆ ☆ ☆

قال القاضي بصرامته المعهودة:

- المدعي يتهمك بأنك تريد أن تكون وحدك الزوج والأب في الأسرة.. مع أنه يشاطرك المنزل على قدم المساواة.

عندئذ لم أستطع ضبط أعصابي، فصرخت بوجه القاضي:

- الأولاد من صلبي أنا فما علاقته بهم..؟ وإذا شاركني زوجتي فلمن سينتسب الأطفال الذين ستلدهم!؟!

رد القاضي بوجه محايد التعبير:

- لا تستعجل الأمر.. القانون سيبت في هذا الموضوع في الوقت المناسب!!!

☆ ☆ ☆